العرب
الجمعة 2020/07/17
السنة 43 العدد 11764

«حفريات النص الشعري الجذري» بحث في علاقة النقاد والشعراء

تقسيم الشعر إلى قديم وجديد يسلبه جذوره

تثار دائما في السنوات الأخيرة مسألة تخلف النقد عن ركب الشعر، كما تثار أيضا التقسيمات بين الجديد والقديم، وكلا المسألتين تحتاجان إلى التفحص قبل تحولهما إلى حكمين خاطئين. فالنقد لم يتخلف عن مواكبة الشعر بشكل كلي بقدر ما هي علاقة الشعر بالنقد التملص دائما، أما الإقرار بتقسيم الشعر زمنيا بين قديم وجديد فهو غير موفق، بل الأجدر تقسيمه وفق الجذور وتفرعاتها كما يدعو إلى ذلك الناقد عبدالقادر الرباعي.

عمان – يحتفي الدكتور عبدالقادر الرباعي في كتابه "حفريات النص الشعري الجذري" بالهيرمنيوطيقا أو التأويلية وتمثلاتها في تحليل الخطاب الشعري، وبما يندرج ضمن اهتمامات الناقد في القراءة الجمالية للشعر العربي في أصوله العريقة خاصة.

الناقد يدعو إلى أن نتعامل مع الفن والشعر على أساس الخصوصية الخاصة، بعيدا عن التصنيف الزماني والمكاني

ويستهلّ الرباعي كتابه، الصادر عن "الأهلية للنشر والتوزيع"، بفحص مرتكزات التأويلية من خلال آراء أقطابها المؤثرين أمثال شليرماخر، ودلتاي، وهايدغر، وجادامر، وبول ريكور، لكنه يفيد من نظريات ما بعد الحداثة أيضا، مثل السيميائية وجماليات التلقي.

تأويل الشعر

للتأويلية في الكتاب أعمدة فلسفية تتمثل بمثلث يحمل أساسها الفكري. وأهم عناصره "الفهم" أولا، و"التفسير" ثانيا، و"التطبيق" ثالثا. ولأن هذه العناصر تعمل على تحليل نص الخطاب، فإن عملها متشابك ومتحد في آن.

فقد ركز جادامر بشكل خاص على العنصر الثالث (التطبيق)، لأنه -بحسب ما يرى- تجسيد للمعنى وتطبيقه في ذات المؤوّل. ولهذا قال "إن الانصهار الداخلي للفهم والتفسير يقود إلى العنصر الثالث في المشكلة التأويلية؛ أي التطبيق". وتعليقا على هذا الرأي يرى الرباعي أن مصطلح "التمثل" قد يكون أقرب من مصطلح "التطبيق" إلى فهمنا للفن عامة، والشعر خاصة؛ ذلك لأن مرحلة التأويل مرحلة معقدة، فهي تتركز على فاعلية الذات بإقامتها حوارا داخليا مع أبنية النص، وفراغاته، وتحيزاته.

ويؤكد الرباعي أن هذه المهمة الصعبة تحتاج إلى ما هو أكثر من الفهم الأولي والتفسير الظاهري لمجموع تلك الأبنية. ومن أجل هذا لا بد من مرحلة أكثر حفرا في العمق تمتزج فيها ذات المؤوّل بكل حيثيات النص الداخلية على تشابكها وتقاطعها وتعقيداتها، ومن ثم الغوص في أبعادها المحتملة أو الممكنة، لاتخاذ موقف ذاتي يبلورها نص جديد ولّده التمثل الذاتي لقارئ النص قبل التأويل.

ووفقا لما يرى الرباعي، لا تتكامل عملية الحفر المعمقة إلا بتقمُّص أبعاد النص السطحية والعميقة أو ما يكن تسميته "مرحلة التمثل"، وهي مرحلة شعورية إنسانية جمالية فنية تليق بعالم الشعر خاصة، والفن عامة.

ولأن مصطلح "الجذري" في العنوان قد يثير إشكالا للفهم عند بعض القراء، يوضح الرباعي أنه منذ كتابه الأول "الصورة في شعر أبي تمام" (1976) كسر مفهوما مكرَّسا للتفريق بين الشعرين القديم والجديد إبداعا ونقدا، وهو مفهوم تبنّاه "نفرٌ محافظ ومؤثر في بعض الأوساط المعرفية والنقدية". وبدلا من ذلك التفريق، يدعو الرباعي إلى أن نتعامل مع الفن والشعر على أساس الخصوصية الخاصة، بعيدا عن التصنيف الزماني والمكاني؛ لأن للفن، والشعر جزء مفصلي منه، روحا تحيا بـ"الموهبة والإبداع والتشكيل الفني الراقي". ويضيف "لقد كُرِّس ذلك منذ أن عرف التاريخ طبيعة الكلمة النابضة بالحياة والجمال والإنسان، زمن أفلاطون وأرسطو ومن تلاهما كالجاحظ والجرجاني وحازم القرطاجني. ومن ذلك الشعر اليوناني والروماني إلى يومنا هذا".

وانطلاقا من هذا، ينظر الرباعي إلى الشعر العربي نظرته لشجرة باسقة؛ جذرها في الأرض وعلوّها ممتد لا حدود له. ويتابع بقوله "ما الشعر الذي أُطلقت عليه سمة العصور القديمة إلا شعر جذري، لكونه الجذر لكل ما نما منه كالشعر العمودي، وشعر التفعيلة، وقصيدة النثر، وما سيتلو". وبناء على هذا الفهم لتأسيس مفهوم جديد للشعر العربي يتجاوز الزمن إلى الشكل، أطلق اسم "النص الشعري الجذري" بديلا للنص الشعري القديم، وفي هذا السياق قرأ قصيدتين جذريتين، إحداهما لكعب بن زهير، وثانيتهما لابن المعتز. ومن بعدهما أعاد قراءة نماذج من التراث النقدي التطبيقي في ضوء النظرية التأويلية التي حمل مرجعياتِ آفاقِ مصطلحها الفصلُ الأول من الكتاب.

قراءات تطبيقية

يخصص الرباعي الفصل الثاني لقراءة النص الجذري الأول وتحليله قصيدة البردة للشاعر كعب بن زهير، تحليلا سيميائيا تأويليا.

ويخصص الناقد الفصل الثالث لتحليل "عينية" ابن المعتز، ومطلعها: الدار أعرفها ربى وربوعا/ حتى أساء بها الزمان صنيعا.

ويؤكد المؤلف أن تحليله للخطاب في نص هذه القصيدة أتى من خلال الوعي لإنتاجية التأويل، مستفيدا من نظرية التلقي واهتمامها بأفق النص. من خلال استجابته لمصفوفة الأفق هذه، وجد طريقه إلى الفهم ومنه إلى التأويل، مؤكدا أننا حين نؤول نصاً فإننا نُحدث علاقة حميمية بين تجربتنا وتجربة الآخر. فالمهمّ كما يقول مصطفى ناصف "تجربة الاكتشاف، وتجلي الذات، ومعرفة النفس، وانفتاح الأفق واستقطاب المعنى الإنساني الأعمق في النص".

ويؤكد الرباعي أن إعادة قراءة التراث النقدي التطبيقي في نماذج أساسية ومفصلية، كالمعنى واللفظ، والغموض، والتضمين (التناص)، والتعقيد، وعمود الشعر، وفق نظرية التأويل واستيعاب مداراتها المفيدة للشعر وللنقد على حد سواء، غدت عبئا ثقيلا لا بد من حمله والانصياع له. ذلك أن الإشكالية بين النقاد والشعراء في تلك المبادئ الأساسية المتضمَّنة في الموروث النقد التطبيقي، وخاصة المعنى الشعري فهما وتطبيقا، كانت حقيقة تاريخية لم تصل في العصور السالفة إلى الحد الأدنى من التوافق بين الفرقاء، وخاصة الشعراء حاملي نهج التجديد.

ويوضح أن التأثير الأكبر في الأحكام غير المقنعة على الشعر، كان مصدره الجو العام الذي تبنّى رؤية مسبقة مؤداها تفوُّق القديم عامة، وقصور الجديد عامة. وكان من نتائج تلك الأحكام، التشكيك في جدارة النهج الشعري الجديد حدَّ رفضه غالبا، والتمسك بالنهج الشعري القديم حدَّ تقديسه غالبا.

ووفقا للرباعي، فإن استغلال نظرية التأويل بالفهم السوي لمدخلاتها الفلسفية ومخرجاتها الجمالية، يمنح الناقد الماهر آفاقا واسعة يطل منها على أبعاد متفوقة في قراءاته للشعر قديما وحديثا، على أساس أن الشعر أينما وُجد: زمانا ومكانا، مكوِّن جمالي إنساني يستوي فيه الفن شكلا والمعنى روحا؛ بقطع النظر عن اختلاف اللغة والعصر والجنس. ومن خلال هذا الفهم لطبيعة الشعر ومهمته في الحياة والكون، يقرأ المؤلف شعرنا الجذري والحصيلة النقدية التي مورست عليه قديما، قراءة تأويلية معاصرة، مؤكدا أن هذه القراءة منحته فرصة لتجريب ثقافته وذوقه، ومن ثم التوازن بين رؤيته وفعله، في عمق الاكتشاف، وحيوية التمثل، وبراعة التطبيق والتأويل.

وأخيرا يمكن القول إن هذا الكتاب ينطلق من مكونات التأويل المتماسكة، مؤولا نصوصا شعرية، ومراجعا نقودا تراثية وفق رؤية نقدية عصرية تستحضر "الحفر جماليا في جذور النص الإبداعي"، معتمدا طروحات أهم النظريات العالمية التي اعتمدت تمثلات التأويلية أسسا مكينة، لاستيعاب منطلقاتها الفكرية والتطبيقية. وقد أسعفت تلك الأسس في الإجابة عن أسئلة المعرفة المعقّدة في جوانب البحث موضع الإشكال، وحل التشابكات والاختلافات، انتصارا للفكر الحداثي الخلّاق.

الشعر جذع واحد (لوحة للفنان ساسان نصرانية)

«ألف عنوان وعنوان» تحاكي أحلام قرائها

الشارقة – "حكاية قلم في وطن"، و"عقلي يقول لي"، و"القطتان في بيت الجدة"، و"كلنا فنانون"، كلها عناوين لقصص وحكايات من الإصدارات التي دعمتها مبادرة "ألف عنوان وعنوان" في مرحلتها الثانية، الرامية إلى إثراء الهوية الثقافية وتمكين الإبداع في الإمارات، من خلال تعزيز الإنتاج المعرفي والفكري، وضمان استدامة صناعة النشر داخل الدولة وخارجها، بالإضافة إلى دعم المؤلفين الإماراتيين وتشجيعهم على تأليف المزيد من الإصدارات، ودعم دور النشر الإماراتية وضمان منافستها في قطاع النشر.

وتحمل الإصدارات التي تقدمها المبادرة لقرائها الصغار مضامين ذات أهداف تربوية واجتماعية مختلفة، تعزز لديهم معاني الحب والعطاء وتشجعهم على إخراج إبداعاتهم المختلفة.

يروي كتاب "حكاية قلم في وطن"، تأليف عنود العبيدلي، ورسوم رغداء شبانة، والصادر عن دار ربيع للنشر، قصة قلم يرفض أن يمكث في علبة الألوان أو على الطاولة، لأن ذلك يحزنه، بل يحدث الأطفال ويطلب منهم أن يستخدموه في الكتابة والرسم والتخطيط ويقول لهم "أنا القلم مثل العلم ومثل طائر يطير بشموخ وحرية على الفنن، اُكْتُبْ بي وعبّر، وعن تاريخ الإمارات سطِّر، واكْتُبْ بي عن ابتكار الإنسان فهُم من حققوا الريادة، فكتاباتك ستخلد على مر الأزمان فهو فخر الأوطان".

وتُعرف قصة "عقلي يقول لي" تأليف نادين باخص ورسوم علي الزيتي، والصادرة عن دار نشر سما، الأطفال ببعض المعلومات والنظريات للفيلسوف اليوناني سقراط المحب للحكمة، وضرورة التفكير بشكل يتفق مع العقل، مع توضيح سهل ومبسط للقراء الصغار بأن العقل دائما يرشدنا إلى الصواب، وما فيه فائدة لنا، فعلينا ألا نتجاهل ما يقوله عقلنا.

أما قصة "القطتان في بيت الجدة"، التي تعد واحدة من حكايات الأدب الصيني العريق، والصادرة عن دار نبطي للنشر، فتروي حكاية قطة مشردة تؤويها سيدة وتضمها إلى قطة سابقة لتبدأ رحلة التفاعل بين القطتين اللتين تجدان صعوبة في التأقلم مع الوضع الجديد لعدم وجود لغة التواصل بينهما، وتتجسد أهمية القصة من كونها تعزز في داخل الطفل الشعور اتجاه الآخر، وتفتح أمامه آفاق التواصل والتعامل مع الآخرين في البيئة المشتركة، وتنقله كخطوة أولى من البيئة العائلية المحدودة نحو تقبل أعضاء جدد في العائلة وصولا إلى الحياة الاجتماعية والتفاعل مع أشخاص جدد، بالإضافة إلى أن هذه القصة تقرب الطفل من عالم الحيوانات الأليفة والاهتمام بها وفهمها والتعايش معها.

القصص التي تقدمها المبادرة لقرائها الصغار لها أهداف تربوية واجتماعية مختلفة، تعزز لديهم معاني الحب والعطاء

وتلهم قصة "كلنا فنانون" التي جاءت من تأليف شمع خان، وترجمة فاطمة شرف الدين، ورسوم جواكين كامبلونش والصادرة عن دار كلمات، الأطفال للقيام بمجموعة متنوعة من الأنشطة الفنيّة والتشكيليّة والحرف اليدويّة التي تطوّر مهاراتهم الإبداعية وتحفز خيالهم على الانطلاق مثل الرسم، وإعادة تدوير المواد، وفن الأوريغامي، والتلصيق، وصنع الأشكال والمنحوتات بالطين وغيرها من الفنون.

فترات من تاريخ المغرب تصدر في كتابين

الرباط – صدر مؤخرا عن دار النشر "مفترق الطرق" مؤلف بعنوان "الشرق والبحر المتوسط ما وراء الحدود" لأستاذة التاريخ المعاصر ليلى مزيان، وكتاب ثان بعنوان "الدين العام والإمبريالية في المغرب (1856 – 1956)" لمؤلفه آدم باربي، وتقديم توماس بيكيتي.

يغوص كتاب "الشرق والبحر المتوسط ما وراء الحدود"، الذي سهرت على إنتاجه ونشره وكالة الجهة الشرقية، في تاريخ المغرب وجذوره العربية والأفريقية المتوسطية، وكذا الروابط التي تجمع بين الشرق والغرب.

وفي هذا الصدد، أشارت مقدمة الكتاب إلى أن هذا المؤلف "يتابع عن كثب، منذ الأزمنة السحيقة وإلى غاية الوقت الراهن، تطور علاقات المغاربة بالبحر المتوسط".

وفي التوطئة، كتب المدير العام لوكالة الجهة الشرقية، محمد مباركي، أن الكتاب يشرح بالتفصيل والدليل، مرفقا النصوص بصور غير مسبوقة، المنافع الثمينة التي قدمها علم الفلك العربي للبحارة، مضيفا أن "الشهادات الوجيهة تواكب وتدعم تحليلا يأخذنا إلى ما وراء الحدود الجهوية".

وبحسب مباركي، فإن المؤلف يبرز أيضا الدور المهم الذي اضطلعت به الموانئ والملاجئ الساحلية المغربية، وكذلك الخيارات المفروضة والنزاعات وكذا الرهان الكبير المتمثل في السيطرة على البحار، خاصة البحر المتوسط.

وسجل أن ليلى مزيان دافعت حتى آخر رمق عن صرامة المؤرخة، وكبحت في كثير من الأحيان جماح الإسقاطات المتسرعة، لتقدم لمحة تاريخية دقيقة حول الواقع الثقافي والحضاري الذي فرضه البحر المتوسط.

ونذكر أن ليلى مزيان تشغل منصب أستاذة التاريخ المعاصر بجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء. كما أنها عضو في اللجنة التنفيذية للمجتمع الدولي لمؤرخي البحر المتوسط، وفي الشبكة الدولية لحكامة الموانئ الأطلسية (القرن الرابع عشر – القرن الحادي والعشرين).

وفي كتابه "الدين العام والإمبريالية في المغرب (1856 – 1956)" دوّن آدم باربي أن "معارك كبرى قليلة سبقت توقيع معاهدة فاس عام 1912". وعليه فإن "الديون المتراكمة هي التي عجلت بفرض الحماية الفرنسية على المغرب".

ويسلط هذا الكتاب، المرفق برسوم بيانية وجداول، الضوء على "الآليات الاقتصادية والدبلوماسية الكامنة وراء هذه الضائقة المالية"، موضحا كيف أن السياسة الإمبريالية في مجال الديون و"التي تجسد التوسع الاستعماري الأوروبي في القرن التاسع عشر".

وسجل المؤلف أنه خلال الفترة ما بين 1856 و1956 تشكل "تاريخ اقتصادي وسياسي ودبلوماسي، حيث يمثل الدَّيْن العامل المشترك، ولا يقل أهمية عن الاضطرابات التي أدت إلى نشأة المغرب الحديث".

كتابان صادران عن دار مفترق الطرق يسرد كل منهما بطريقته وأسلوبه فترة تاريخية وحضارية للمغرب

ويكشف توماس بيكيتي، في تقديمه للكتاب تحت عنوان "الاستعمار عبر الدَّيْن"، بدقة آليات "المعاهدات غير المتكافئة" التي مكنت القوى الاستعمارية من "السيطرة على العديد من البلدان والأصول الأجنبية"، مستدلا على "استخدام هذا المنطق" من خلال حالة المغرب.